

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الأول

ما السر الذي يجعل الإنسان يتجاوز حدود الإنسان العادي ؟ ما السبب الذي يحفزه على أن يكون رد فعله غير ردود الفعل النفسية والمنطقة ؟ قال علي رضي الله عنه لما حمل باب خيبر الذي يعجز عن حمله أولو العزم من الرجال : والله ما حملته بقوة بدنية . وعني علي رضي الله عنه أنه لو لم يمدد بسبب من السماء ما استطاع أن ينجز هذا العمل . وقال الجندي الذي أتى بتاج كسرى وصولجانه بيت مال المسلمين بعد أن ظفر بهما في المعركة : أما والله لولا الله ما أتيتكم بهما . فالله وحده هو الذي جعل الجندي يسلم الكثر الذي حصل عليه ابتغاء رضوانه والظفر بجنة النعيم . ولما نام علي في فراش النبي ليلة همّ المشركون بمداهمة بيت النبي وقتله في فراشه ، نام وقد افتدى النبي بنفسه ومتوكلاً على الله ، وما كان لعاقل في الدنيا أن يفعل ما فعله علي من أجل نجاة رسول الله ﷺ .

ولو أردت أن أستعرض ما في صفحات التاريخ من أمثلة لإناس تجاوزوا حدود الإنسانية في الشجاعة أو الكرم أو الصبر أو التوكل إلى ما هنالك من صفات لما كفتني من أجل تحقيق ذلك المجلدات .

وفي عصرنا الحالي ، هذا العصر المغرق في الواقعية والمادية ظهرت بدعة غايتها الطعن في التاريخ والتشكيك في ما جاء فيه . لقد وصف الطاعنون المؤرخين بالتعصب والشطط والمغالات سعيًا وراء تحقيق أرب . ولقد أثرت في

هذه الظاهرة إلى حد أنني شككت فعلاً في ما ورد في كتب التاريخ من تاريخ ، ودعم هذا الضعف لدي الواقع الذي عشته وما أزال أعيشه . . واقع أكد ويؤكد كل يوم أن (السوبرمان) إنسان خيالي . وأن ليس في الواقع إلا الإنسان الذي يصوغه الواقع ، وأن التاريخ وما ورد عنه في واد وأن الواقع وما أظهر ويظهر في واد آخر .

أثر في هذا إلى حد الزلزلة كما قلت . . إلى أن وقع حدث في حيناً أراني أغودجاً من الناس جعلني أعيد النظر في حساباتي وأن أتساءل من جديد عما إذا كان (السوبرمان) موجوداً بالفعل وأنه قد استطاع أن يثبت تفوقه على الناس في هذا العصر الآلي الذي حوّل الناس إلى قطع آجر كالآجر الذي تنتجه المصانع .

هذا (السوبرمان) لم يكن مثلاً للشجاعة أو الكرم أو الوطنية أو . . . لقد تجاوز الرجل حدود الإنسانية في موقف يعيشه كل الناس ، هذا الموقف هو الموت . أو على الوجه الأدق الفجيعة بعزير .

(سوبرماني) شيخ في حوالي العقد السادس من العمر ، كنت أراه ذاهباً إلى الجامع أو آيماً منه متوكئاً على عصا وهو يرفع رجله اليسرى المشلولة ويضعها على الأرض كما لو كانت خرقة ملفوفة .

أما الحدث فهو أن الشيخ كان له ولد وحيد بلغ الصف النهائي في الجامعة وقدم امتحان التخرج . وفي اليوم الذي أعلنت فيه نتائج امتحانات الكلية ، وكان اسم ابن الشيخ في رأس القائمة ، في صباح هذا اليوم توفي الشاب بالسكتة القلبية عن عمر يناهز الثالثة والعشرين .

الحدث جليل ولا شك ، والوالد الذي هو على وشك أن يبرح الدنيا يعيش ليشهد هذه الفاجعة التي تفصم الظهر وتمزق القلب .

وما حدث للشيخ قد يحدث لكثير من الآباء الذين شيعوا أبناء شباباً إلى مشواهم الأخير . . ولكن الشيء غير العادي الذي هز قلوب أبناء الحي كلهم هو رد الفعل الذي صدر عن الشيخ بعد أن توفي ولده .

تري كيف يكون حال أب فقد وحيدة ؟

طبعاً الناس أجناس كما يقول المثل . والآباء ليسوا على درجة واحدة من العاطفة والحنان . وأنا شخصياً من النوع من الآباء الذي إن مات ولده مات هو بعده حزناً عليه . إن وجودي رهن بوجود ولدي وحياته أمل حياتي . والإنسان في تعريفه حيوان ذو أمل . والولد الوحيد أمل أبيه ، يرى فيه كما قلت امتداداً لوجوده ، وهو على الحقيقة من صنعه وصياغته . فالأب المثالي ينشئ ولده على مثاله ، هذا إذا وفقه الله إلى تحقيق ذلك . وهرم الحياة الذي يهبط الأب على جانب منه بعد أن بلغ ذروته من العمر هو الهرم نفسه الذي يرقى الولد جانبه الآخر . ولهذا قال النبي ﷺ : الولد سر أبيه . فإذا كانت العلاقة بين الأب والابن بهذه القوة وإلى هذا المدى من المتانة فما يكون رد فعل الأب حين يفجع بولده . . بوحيدة ؟ كيف يمكنه أن يتقبل مصيبة كهذه ويصبر عليها ؟ ولقد قرأت مرة بيتين من الشعر لشاعر يقول :

يمثل ذو العقل في نفسه مصائبه قبل أن تنزلًا
فإن نزلت بفتية لم ترعه لما كان في نفسه مثلاً

وكثيراً ما كنت أمثل في نفسي ما قاله الشاعر فلا أجدي إلا متسائلاً في النهاية : مشكلة من يفجع بوحيدة هي حاجته إلى قناعة تعينه على تحمل محتته وتجاوزها ، ولكن من أين تأتي هذه القناعة ؟ وكثيراً ما أسائل نفسي وأنا أمثل هذه الفواجع : لم أستمّر في العيش بعد أن فقدت - لا قدر الله - ولدي ، وما حاجتي إلى الحياة بعد أن انطفأ نور أملي الوحيد ؟ ولقد قيل : المصيبة ، إن صبرت ، واحدة ، وإن لم تصبر فاثنتان . ومعنى هذا أن من لا يصبر على المصيبة جعلها اثنتين وذلك باستسلامه هو إليها وانهيائه بدوره بعدها . ومع هذا فأنا أجد أن الحياة أسخف من أن تعاش دون أمل ، وأن حياة بلا أمل كحياة سجين محكوم بالسجن مدى الحياة . وأية قيمة لحياة سجين سيقضي عمره وراء أسوار السجن بلا جدوى ولا معنى لحياته ولا غاية سوى تعذيبه . . إن حياته بالمقارنة تفضلها حياة حمار مشدود إلى رحي طاحونة أو عجلة بثر يقضي عمره في الدوران حولها ولكنه يساعد على طحن حب أو على استخراج ماء مثلاً .

باختصار أن ما كنت لأتحمل مصيبة موت ولدي . أقول هذا على الرغم من أنني مفكر وأديب وشاعر ، أي أنني لست إنساناً عادياً ، وأن لي طريقي وهدفي . لقد قيل إن موت الولد صدع في الكبد لا ينجر آخر الأبد ، وهذا صحيح . فمن يصبر على موت ولده يعيش ولكن بقلب جريح ، جريح جرحاً لا يندمل آخر الأبد .

المهم في حديثنا أن فاجعة موت الولد لا تعدلها فاجعة ، وردود فعلها معروفة ، ومع هذا فما صدر عن الشيخ من رد فعل هو الذي أدهشني وحيرني وجعلني أنظر إلى الشيخ على أنه لغز غامض وظاهرة محيرة و (سوبرمان) تجاوز حدود البشر .

واليكم للتوضيح ما كان من أمر الشيخ لما مات ولده . من عادة الشيخ أن يستيقظ قبيل الفجر ليتوضأ ويذهب إلى الجامع ، ومن عادته أيضاً أن يصطحب ولده معه . ولقد شق الشيخ باب غرفة ولده كالعادة وناداه فلما لم يجد دخل الغرفة حتى وصل السرير الذي ينام عليه ولده فهزه برفق ، فلم تصدر عن الابن حركة ، وهنا مال الشيخ على ولده وتأمل وجهه ، وشك في الأمر ، فمضى وأضاء النور ، ولما عاد وجد ولده قد فارق الحياة .

هذا ما حدث . . وبعد فما الذي كان متوقعاً من الأب أن يفعله ؟ فليحاول القارئ أن يحزر . . ويخمن .

وما حدث هو أن الشيخ انسحب من غرفة ولده ، ومضى فتوضأ ، ثم غادر منزله إلى الجامع ، فصلى الفجر ، وذكر مع الذاكرين ، ثم عاد فدخل على زوجته وأيقظها وبدأ بعدها لتلقي النبأ . لقد انتظر حتى توضأت وصلت الصبح بدورها ، ثم جلس إلى جانبها ، وهي لا تزال ميممة وجهها القبلة ، وجعل يحدثها عن صاحب أمانة استودعها أحداً من أصحابه ، ثم عاد يطلب أمانته ، فلما يكون موقف من استودع الأمانة ؟ قالت الزوجة : إن عليه أن يردها . وانتقل الشيخ من ثم إلى الحديث عن الأمانة التي استودعها الله الوالدين ألا وهي الأبناء ، فهل من حق الوالدين أن يعترضوا على الله إن هو أراد أن يسترد

أمانته ؟ وهنا نظرت الزوجة إلى زوجها في ريب وسألته : ولكن لم هذا الحديث عن الأمانة الآن ؟ فقال الشيخ : لقد كان موضوع الدرس الذي سمعناه في الجامع قبل قليل . ولم يقنع هذا الجواب الزوجة فقالت : ويحيى .. أين هو ؟ ألم يرافقك إلى الجامع ؟ قال : لا ، لقد وجدته متعباً قليلاً فتركته . وهنا همت الزوجة بالمضي لترى ولدها المتعب فإذا بالشيخ يمسك بيد زوجها ويضغطها قائلاً لها بصوت قوي : أعود فأذكرك بأن الله هو صاحب الأمانة ، وأنه استودعنا ولدنا ، وأنه حر في أن يدعه عندنا أو أن يسترده . ودارت عينا الزوجة من الخوف وهمت بالصراخ فتابع الشيخ بقوة : لسنا خيراً من رسول الله الذي توفي أولاده الذكور جميعاً وهم صغار ، والذي دفن بناته الواحدة بعد الأخرى بعد أن كبرن وتزوجن وصرن أمهات بل إنه هو الذي أسّر لابنته فاطمة التي ظلت على قيد الحياة في حياته أسراً إليها ، وهو في النزاع ، أنها أول أهله لحوقاً به بعد وفاته . ومع هذا فالأم تبقى أمّاً فصاحت : ولدي ولدي ، فصاح الشيخ بدوره : والله لئن سمع أحد صوتك فلا أنا زوجك ولا أنت زوجتي .

سمعت هذه القصة العجيبة من أهل الحي الذين تناقلونها فيما بينهم نقلاً عن بقال الحي الذي كان له بالشيخ صلة قوية . وتعجبت .. أخذني العجب طوال اليوم وأنا أفكر في أمر الشيخ . فهل هذا تصرف بشر ؟ وهل الموقف الذي عاشه يمكن أن يقفه بشر ؟ وما الدرجة من الإيمان التي بلغها الشيخ حتى صدر عنه هذا التصرف ؟ أليس للشيخ قلب ؟ وهل يعقل ألا يكون للشيخ قلب ؟ وكيف تحمل قلب الشيخ هذه الفاجعة وكيف وقف منها هذا الموقف ؟ من يصدق أن أباً يكتشف أن ولده توفي في الليل فيغلق عليه باب غرفته ويذهب إلى الجامع ليصلي صلاة الفجر كالعادة ؟ وكيف استطاع الشيخ أن يصلي ؟ بل كيف ترك ولده الميت مع أمه في البيت وحدهما ؟ ولو أن الأم استيقظت واكتشفت وحدها أن ولدها توفي فما الذي كان يحدث ؟

أسئلة ظلت تلح علي طوال اليوم حتى آذنت الشمس بالمغيب وأذن المؤذن لصلاة المغرب ، فانتظرت قليلاً ، ثم مضيت إلى بيت الشيخ لأقدم التعازي مع المعزين .

دخلت فنهض واقفاً مع عدد من أقربائه بادي الإعياء ، ثم عاود الجلوس في حين جلست أنا غير بعيد عنه ، أصغي إلى قارئ القرآن الذي تصدر المكان ، يتلو بصوت جهوري قوي يحسبه السامع صادراً عن مكبر صوت .

كانت عيناى على الشيخ ، وقد بدا في جلسته مستكيناً على نحو ملفت للنظر ، ظهره منطو ، ورأسه مائلة على كتفه ، ووجهه قد شف وشحب حتى لتحسب البشرة من شمع . ظللت أتأمل هذا الوجه البريء براءة عجيبة ، براءة طفلية ، والذي كان يحمل أعباء السنين الطويلة في الوقت نفسه ، فداخلي شعور غامض مشوب بالحيرة ، وقد بدا هذا الوجه غريباً لا يشبه وجوه الناس من قريب أو بعيد . وكأن صاحبه قد ولج فلكاً غير الفلك الذي تدور فيه الأرض ، ورأى ما لم تره بعد عين .

كان الشيخ يتحرك بين الحين والحين ، يهزه ما يسمع من الآيات وهي تتلى ، فيرفع رأسه قليلاً ، وينظر في اتجاه المجهول ، وإذا عيناه الصغيرتان تومضان من بين الأجفان العاطلة عن الأهداب مطلقة شيئاً أشبه بالأشعة ، وإذا الوجه الشمعي ينفعل فجأة فإذا به يتحرك ، تتوتر عضلاته المسترخية ، ويظهر عليه تعبير عجيب لا سبيل إلى وصفه .

ذكرني وجه الشيخ بلوحات آل غريكو لوجوه القديسين . تلك الوجوه التي رسمها بقلم شاحب رسماً شفافاً حتى بدت الوجوه وجوه أطياى وأشباح . لقد بلغ الفنان هذه الدرجة من الشفافية بعد حياة ملأى بالأحداث ناضحة بالأحزان . لقد وصل فلكاً بعيداً رفعه إليه حزنه وحده . ترى هل كانت أحزان الشيخ ، ومنها حزنه الأخير الفاجع ، سبباً في أن يصير وجهه صورة لتلك الشفافية الملائكية ؟

كانت عيناى عليه لا تفارقانه ، محاولاً أن أتبين ما يفكر فيه . وبم يمكن أن يفكر والد فقد وحيدة في فجر هذا اليوم نفسه ؟ إن ذكريات الأعزة لا تلح علينا إلا بعد رحيلهم . ولو أن الراحلين لم يرحلوا لما هاجت في الباقيى الانفعالات والذكريات . فالعزيز الراحل يغدو بعد رحيله أسطورة ، أغنية جميلة

وموسيقى صادرة عن أفلاك اللانهاية . إن كل الهنات والأخطاء والأغلاط والتناقضات الموجودة في كل إنسان كل هذا يصبح نسياً منسياً ، ولا يبقى من الراحل إلا كمالاته . وليت أن الإنسان قبل أن يصير إلى ربه يكون له الجمال الذي تكتسبه ذكراه بعد رحيله ، ولو أن هذا تحقق لانقلب الإنسان أسطورة وأغنية بحق خلال حياته .

الشيخ مستغرق إذن في عالم الذكريات التي ما زالت دافئة ، دافئة كأديم دافئ . لقد ذهب الراحل مخلقاً وراءه قلباً جريحاً وعيناً دامعة وذكرى محفورة بميسم من نار . آه ، إنه الحزن .

ووجدتني منجذباً إلى الشيخ من حيث لا أدري ، تدفعني إليه موجة من الإشفاق ، وأنا أتصوره في وضع من فقدوا الأحبة وما هم فيه من وحشة وخاصة في الأيام الأولى . فالحزن يبلى كما يبلى الثوب ، هكذا جاء في أمثال العرب ، وهذا صحيح ، ولكن إلى أن يبلى الحزن فإنه يعرض كما تعرض الذئاب ويمزع اللحم عن العظم كما تفعل الأنياب .

كنت أرى الشيخ غادياً رائحاً ، قاصداً الجامع القريب في أوقات الصلاة يستعين بعكازه مساعداً رجله اليسرى المصابة بالشلل ، فيشير منظره في مشاعر تؤلمني . صرت أصلي خلفه في الجامع صلاة الفجر ، مصغياً إلى صوته الحنون وهو يتلو الآيات القصار . كان له صوت دافئ خفيض ضعيف لكن له حلاوة وتأثيراً ، ينفذ إلى القلب فيحركه ويهزه ويمتلكه . كنت أتصور لو أن الشيخ استغل جمال صوته في عالم الغناء لكان إذن مطرباً ذا باع في هذا العالم . . فإذا قضيت الصلاة جلس وجلس المريدون حوله في نصف دائرة يصغون إليه وهو يفسر آيات من سورة ، أو يشرح حالاً من الأحوال الصوفية أو مقاماً من مقاماتها . . فإذا غادر الجامع رافقته إلى منزله القريب من منزلي وبني من السكنينة والطمأنينة ما يبدو على وجه الشيخ المعبر العجيب .

ونشأت ألفة بيني وبين الشيخ لم تلبث أن تحولت إلى مودة . صار يدعوني لزيارته في منزله فكان يستقبلني في غرفته التي كانت أشبه بمكتبة . . خزائن

تغطي الجدران مثقلة بمجلدات من التراث ، مجلدات في الفقه والتفسير
والتصوف والفلسفة أيضاً .

الشيخ كان يقرأ الفلسفة إذن ؟

وعجبت لهذا .

كنت أدخل عليه ، فينظر إلي من فوق نظارتيه ، وهو جالس على
الأريكة ، ويهم بالنهوض ، فأسرع إليه وأميل عليه محاولاً تقبيل يده وما كان
الشيخ يعطيني يده . كنت ألمس أناملها لمساً فأرفع أصابعي إلى شفتي اعتزازاً ،
ثم أتخذ مجلسي على كرسي قريب . . أجلس وأنا أشعر ذلك الشعور العجيب
بالسكينة والطمأنينة . لكأن الشيخ كان يشع تلك السكينة والطمأنينة . وما أن
أتأمل محياه وأنظر إلى عينيه حتى أدخل عالماً هو أشبه ما يكون بالجامع . .
أجل ، كنت مولعاً بالذهاب إلى الجامع في السحر . . أدخل الصحن الفسيح ،
وأتوضأ من البركة والماء يساقط من جوانبها شلالات صغيرة ذات خرير ناعم . .
وفوق البركة قبة من الخشب المحفور المزين برسوم هندسية . . وكثيراً ما كنت
أجلس على طرف الممر المفضي إلى داخل الجامع أتأمل انفجار الفجر في القبة
السماوية ، والحمامم الأليفة تطير وتقفز وتحط على حفاف البركة هادلة هديلها
الجميل .

كنت أطيل الجلوس في ذلك العالم الخاص ، الجواني إن أمكن القول . .
أقول (جواني) لأن عالم الجامع كان يفصلني عن عالمي العادي ، عالمي
الخارجي ، فكأنني انتقلت بالفعل من عالم إلى عالم ، ومن أرض إلى سماء ، ومن
صحراء إلى جنة عالية قطوفها دانية .

كنت أقصد الجامع لحاجة في نفس يعقوب قضاها كما جاء في القرآن . . فأنا
ما كنت مصلياً مواظباً من مصلي الجوامع ، وإن كان قلبي معلقاً بها . كنت
أقصد الجامع كلما ضاق صدري وضائق علي الأرض بما رحبت ، فأتوجه إليه
ناشداً ما عجز العالم البراني كله عن تقديمه لي . ولأن الجامع كان يشفيني فلقد
كنت حريصاً على الدواء وضنيناً بتعاطيه في الوقت نفسه . . أخاف أن أتعاطي

هذا الدواء كثيراً لثلا يفقد مفعوله ، وكذلك كان موقفي من الطبيعة وآياتها .

وعندما زرت الشيخ في منزله اكتشفت أنني عثرت على جامع آخر ، على كنز جديد . فالمشاعر العلوية المنبثقة فيّ وأنا في صحن الجامع قد جعلت تتفجّر فيّ وأنا في غرفة الشيخ في بيته . وأيقنت أن للشيخ سراً ، وعزمت من ثم على أن أقتحم اللجة لاستجلاء السر العظيم .